الأساطير المصرية

الحلقة السابعة من سلسلة حديث وحوار

بداية تحياتي العطرة لمتتبعي هذه الحلقة التي سنحاول فيها تناول الثقافة القديمة لأرض الكنانة. هذه الثقافة التي ساهمت حضارتها بقدر وافر ومتميز في ثقافتنا الإنسانية. لحد أمكن القول، أن ثقافة مصر القديمة الى جانب ما أنتجته ثقافة ما بين النهرين بالعراق وبلاد الشام، التي تشمل سوريا والأردن ولبنان وفلسطين حاليا، أي ما يمثل تاريخيا الهلال الأخضر، تعد أمّ الحضارات. وهذا بذون أدنى مبالغة. لكن لمصر ميزة خاصة سنحاول الالمام ببعض جوانبها لفهم ماهيتها. ذلك أن ألغاز ثقافتها ومحضون حضارتها كنز دائم العطاء. كل يوم تأتينا الحفريات في فضائها بشيء مفعم جديد. ثم ان المخطوطات العديدة والرسومات الجمة والآثار العظيمة لا زال العديد من ألغازها لم يفك بعد. النظريات حول طريقة بناء الأهرام الشامخة والمعابد الفارهة لا زالت تطرح العديد من التساؤلات. كيف بنيّت الأهرام والمعابد العظيمة؟ كيف تمّت تلك الدقة في رسم أشكالها المعمارية لحد أبهرت البحث العلمي والالكتروني الحالي.

وصف المؤرخ الكبير والرحالة المكتشف الاغريقي هيرودوت، الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، ليتفقه على علمائها ويطلع على معالما. والذي قال عنها أنها هيبة النيل. ونحن نعلم ما للطبيعة من تأثير بالغ على حياة الانسان وثقافته. والمصريون ليومنا هذا ينعتون النيل بالبحر، فيسمونه بحر النيل. وللنيل تأثير

كبير سواء ما خص الحياة الطبيعية لساكنة مصر أو ما خص معتقداتهم وتصوراتهم للحياة الاجتماعية والفنية والروحية. لم يكن المؤرخ والكشاف هيرودوت وحده الذي زار مصر، بل انها كانت قبلة العلماء والفلاسفة الاغريق الأوائل. وهذا منذ بداية الألفية الثانية وخاصة الالفية الأولى قبل الميلاد. من أمثال هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وبطاغور وهيرودوت وغيرهم كثيرون. وحين بنى ذو القرنين في القرن الرابع قبل الميلاد، الإسكندرية كعاصمة لإمبراطورته التي ضمت مجمل الحضارات والثقافات القديمة. أصبحت الإسكندرية لعدة قرون، أكبر مركز ثقافي وعلمي خلال التاريخ القديم بشكل عام والاعتقاد والفلسفة بشكل خاص. كانت مكتبة الإسكندرية الذائعة الصيت، تزخر بآلاف المخطوطات والكتب. فلا غرابة أن تظل أرض الكنانة معقل المعرفة وإنتاج الثقافة الحية لحد يمكن تسميتها بأم الحضارات والثقافات الكونية. ولا غرابة أن تسمع المصريّين اليوم يسمون بلدهم بأمّ الدنيا. أن حديثنا هنا يسري عن القيمة المعرفية والثقافية للمصريّين القدامى، لا ينحو بأية حال من الأحوال أي منحى شوفيني أو تصور عصبي ضيق. المعطيات والأبحاث العلمية وحدها تتكلم. طبعا، كل الشعوب ساهمت بهذا القدر أو ذاك في نتاج حضارتنا الإنسانية، لكن من المعقول ردّ الاعتبار لمساهمة كل ثقافة وحضارة في المكون الثقافي الحضاري الجمعي للإنسانية. زيادة على هذا، فإننا هنا، نعيد الاعتبار لحضارة وثقافة لها علاقة متينة ودورا أساسيا في تكوين عقليتنا وتصورنا الثقافي العام كشعوب ذات طابع حضاري مشترك.

نظرة وجيزة عن المعتقدات والأساطير عند المصريّين القدامى

ان الحضارة المصرية بدأت في مرحلة لما قبل التاريخ. لكن الأثار الأولى التي بين أيدينا تبدأ لستة ألف عام خلت، أي أربعة الف سنة قبل الميلاد. كانت مصر الحالية وشمال السودان، تنقسم الى حين توحيدهما في الألفية الثالثة قبل الميلاد، الى مماليك بمصر العليا، وهي التي توجد ببلاد النوبة جنوبا ومماليك بمصر السفلى وهي التي توجد بالشمال حيث منطقة الدلتا الخصبة. في الحين الذي كان فيه تشخيص الآلهة في مصر العليا، تأخذ هيأتهم في البداية شكل الحيوان، ستنتقل مع مرور الزامن الى جسد انسان ورأس حيوان. أو الى رمز معين كحصن الدائرة الشمسية. كان تشخيص صور الآلهة بمصر السفلى تروم مع الزمان الى صور بشرية. وهذا أت ولا شك من تأثير التصورات العقائدية التي كانت سائدة عند الشعوب القاطنة شمال وشرق شبه جزيرة سيناء، أي الكنعانيّين والسامريين.

كما أشرنا في حلقة سابقة، لقد حكمت مصر الى حين مجيء الرمان في القرن الأول قبل الميلاد، ثلاثة وثلاثون عائلة. أمكن تقسيم حكمهم الى ثلاثة مراحيل أساسية. وذلك بعد توحيد مماليك الشمال والجنوب في امبراطورية واحدة:

الامبراطورية القديمة والتي عمرت من 2770 الى 2070 قبل الميلاد وحكمتها العائلة الثالثة الى العائلة السادسة،

الإمبراطورية الوسطى من 2060 الى 1788 قبل الميلاد وحكمتها العائلة الحادية عشر وخاصة الثانية عشر،

والامبراطورية الجديدة من 1580 الى 1085 وحكمتها العائلة 18 الى العائلة 20.

أما العائلات الأخرى، فإنها اما كانت ضعيفة أو اقتسمت البلاد خلال مراحل الضعف أو خلال احتلال مصر من قبل أقوام خارجية. هذه الأقوام التي اندمجت كلية في النسيج الثقافي المصري. في هذا الباب يلفت نظر الباحث أو الزائر المهتم بالعوامل الأنثروبولوجية، مدى قدرة الثقافة المصرية على التلاقح مع الثقافات الأخرى لتدمجها وتنتج عبرها ثقافة أكثر تفتحا. حصل ذلك مع الهكسوس القادمين من الشمال الشرقي والكنعانيّين جيرانهم شرقا، وكذا الاغريق والأمازيغ والأفارقة والفرس والرومان. حيث كان هناك خلال كل هذه المراحل التاريخية تطور في المعتقدات والأساطير مع التداخل فيما بينها أو مما آتاها من ثقافات وحضارات أخرى. وهو ما يفسر ظاهرة تطور وتغيّر الأدوار التي تأخذها الآلهة في مصر القديمة. يظهر ذلك جليا في بنايات المعابد. لقد أخد الاغريق عن المصريّين الفنون المعمارية، الا أن معابدهم كانت أقل حجما. لكن لما احتل الإسكندر المقدوني مصر واستقر بها وامتزجت أساطير ومعتقدات الإغريق بالمعتقدات والأساطير المصرية، أصبحت المعابد بمصر تشبه في حجمها معابد الاغريق والتي هي أصغر حجما مما كانت عليه عند المصرين القدامى. وهنا نرى قدرة التكيف الثقافي للمصريّين بشكل جليّ. حيث أخد عنهم الاغريق نمط بناء معابدهم والكثير من أساطير معتقداتهم، ليدخلوا عليها من تصوراتهم الخاصة. ثم يأخذها عنهم المصريّون ليدمجوها في نمط جديد خاص بهم. وهو عبارة عن تفاعل الثقافات وتلاقحها، عوض تنافرها وتعارضها كما تدعوا لذلك بعض التصورات القصيرة النظر.

ـ المعتقات والأساطير عند المصرين القدامى

ليس المجال هنا للدخول في التفاصيل التي تتطلب حيزا لا يتسع له المجال. وحيث يمكن للقارئ أو المستمع، التبحر فيها من خلال الكتب والمعطيات الموجودة عبر الانترنيت. الغاية من هذه الحلقة، إعطاء نظرة عامة لتبيان أهمية الأساطير والمعتقدات القديمة في الحياة اليومية والروحية للإنسان المصري القديم. والتي لا زال تأثيرها ساري المفعول بشكل ملحوظ في العادات والتصرفات الفردية والجماعية ليومنا هذا. يمكن القول، أنه كان هناك نوعين من الآلهة في البداية. ألهه محلية على شكل حيوان أو فطيش أي ما يشبه الحرز في تراثنا الشعبي. وآلهة كونية التي لها عادة هيئة انسان. هذا الشكل الأخير من الآلهة يوجد بالشمال وخاصة بالمنطقة الشرقية لدالتا. وهو لا شك من تأثير المعتقدات الكنعانية والسريانية والأكادية. ثم في ما بعد نجد هناك آلهة محلية تأخذ جسم بشريا ورأس حيوان. وقد يمكن لإله محلي أن يصبح إله كوني. يحصل هذا، لما تأخذ المنطقة التي نشأة بها الاعتقاد مكانة هامة في المجتمع. مثل ذلك، دور الاله آمون الذي كان الاها ثانويا في البداية، وأصبح ذا شأن كوني عظيم بالنسبة للمصريين القدامى وذلك لما أصبحت مدينة طيبة، مكان معتقده الأصلي، ذات أهمية كبيرة كعاصمة فرعونية. هناك الاله خورس الذي هو في صورة صقر أو انسان برأس صقر. حيث جناحيه تشكلان السماء وعيناه ترمزان للقمر والشمس. أما الاله ادفو فهو مشخص في قرس الشمس. ولقد كان الملك ينعت نفسه بأنه الاله ادفو. لقد كان الملك في الأحقبة الأولى، والذي أصبح ينعت بفرعون في ما بعد، يعتبر نفسه الاله هورس أو ممثله في الأرض. وفي مقابل هورس، هناك

الاله سيث الذي تمثله صورة حيوان خرافي. كان سيث اله العواصف والزوابع، خاصة العواصف الغربية الآتية من الصحراء بحرّها الجاف. تارة يلعب الإله سيث دور مساعد لإله الشمس. أمّا الاله راع، إله الشمس فكان مركز المعتقدين به في هليوبولس بمصر السفلى. راع هو الاله خالق العدل والنظام ويتم تشخيصه لمّا يقترن بالإله هورس، هو أيضا على شكل جسد انسان ورأس صقر. وقد يعبر السماء في زورقه ناشرا النور، حيث يدحض الظلمات والفوضى ليعم النظام والعدل. وهذا ما يحدث كل صباح حيث يظهر الاله آتون، الاله الأول خالق الكون. والذي يعود كل صباح ليعيد خلق الكون من جديد. هكذا نرى كيف تتغير أدوار الآلهة. الاله راع يلتحم مع الاله هورس لمحاربة الظلمات والفوضى حيث ليصيرا في الصباح تجسيدا للإله أتون، الذي هو الرب الأعظم، الاله خالق الكون من البحر نون التي تشكلت منه طينة لكل ما هو حيّ. ما يعني في الفهم البدائي للإنسان المصري، أن نون هو رمز لنهر النيل وأن التربة الخصبة على جانبيه هي التي منها تنطلق الحياة.

كما أنه حسب الأسطورة المصرية القديمة، يعود الاله أوزوريس للحياة بعد أن قتله أخاه سيث ومزق جثته الى أربعة عشر قطعة. وذلك أن الالاهة ايزيس استطاعت أن تخيط جسد زوجها لتعيده للحياة. ولقد عوضت مملكته التي أضاعها فوق الأرض بالسلطة على عالم الأموات. ومن جهة أخرى هناك دور أوزوريس في بعث الطبيعة للحياة وخاصة القمح ونهر النيل. هكذا نرى كيف يلعب أوزوريس دورين متناقضين. فهو يقوم بدور إله الموت ومن جهة أخرى يحيي الموتى. هذا التصور للوجود والفناء له دلالات

وانعكاسات بخصوص تطور الفهم الميتافيزيقي والفلسفي فيما يخص وحدة المتناقضات.

لن نخوض في الحديث عن باقي الآلهة العديدة والتي لها أدوار متقلبة وهو في العمق عبارة عن تقلب الأحوال الاجتماعية وانتقال الحكم من دولة لدولة وعائلة لعائله. ومنه الانتقال من ديانة لديانة ونظام سياسي للآخر، ومنه ايضا تغير المرجعيات ومعها أهمية المرتكزات. هذه الوضعية في التطور المجتمعي المتغير على الدوام سمح انتاج عقلية مصرية مرنه. والطابع الآخر لهذه العقلية هو وجود الحاكم الممثل في فرعون الذي هو انسان واله في نفس الوقت. فهو يضمن العدل والنظام والعقاب.

سنجد العديد من الآلهة المصرية عند باقي الثقافات في الشرق الأوسط. فأوزوريس مثلا يماثله الاله تاموز عند السماريّين والبابليّين والاله أدونيس عند الاغريق.

إذا كانت مصر قد عرفت مثل مجمل الثقافات والحضارات القديمة تعدد الآلهة، فان فكرة الاله الواحد الاوحد، خالق الكون، الذي يرى كل شيء ويسمع كل شيء ولا يراه أحد وهو على كل شيء قدير. شكّل التصور البدائي للوحدانية الدينة، كما أشرنا لذلك في احدى الحلقات السابقة والذي حصل في عهد الملك فرعون أخناتون. هذا الملك الذي حكم مصر ما بين 1370 الى 1352 قبل الميلاد والذي قام بحرب عشواء ضد المعتقدات الأخرى، جاعلا مكانها إله واحد أوحد هو أتون. لم يكن آتون ممثلا في شكل حيوان أو انسان لكن في شكل صحن شمسي. وحيث أشعته تنتهي بأيد ترضي على البشر. ان فرض الديانة التوحيدية بالعنف الشرس جعل الكهنة يرفضونها ومعهم مجموعة غفيرة من الناس. هكذا بعد سنوات

قليلة رجع الكهنة الى عقيدتهم القديمة، عقيدة أمون التي تقرّ بتعدد الآلهة. ومنه ذهب فرويد العالم النفسيولوجي في كتابه "موسى والعقيدة التوحيدية" والقول ان النبي موسى هو أمير فرعوني جاء بعد موت أخناتون بمائة عام ليعيد الاعتقاد بالوحدانية الإلهية.

المسألة التي عالجتها المعتقدات المصرية بشكل وافر، هي طقوس الوفاة وكل ما يخص الروح الأبدية وعذاب القبر والبعث والسراط والجنة والنار. هكذا كان المصريّون القدامى يعتقدون بالحساب والعقاب. وأن الأرواح تبعث في الأجساد، لذا كانوا يحنطون موتاهم وخاصة ملوكهم وخواصهم المرموقين. وأن الروح تفارق الجسد لتلتحق بالسماء حيث الاله الأزلي أتون.

ـ تأثير الحكمة والفلسفة المصرية في الحضارة الاغريقي

لقد راج الاعتقاد، وهذا منذ القرن الوسيط، لما استقلت الفلسفة كعامل أساسي في تحرير العقول، ومنه التخلص من الاستبداد الكهنوتي الديني للكنيسة انطلاقا من القرن السادس عشر للميلاد. ولقد جاء تباعا له، التحرر من الاستبداد السياسي انطلاقا من القرن الثامن عشر الذي يعد عصرا للأنوار. أي نور العقل الذي أضاء ظلمات الاعتقاد الغيبي وما يترتب عنه من استيلاب للعقول ومنه استعبادهم واستبدادهم. قلنا لقد راج الاعتقاد أن الفكر المتنور الذي عماده الفلسفة منبعه الحضارة الاغريقية الأوروبية الأصل، وما دور الحضارة العربية الإسلامية سوى عبارة عن قنطرة لعبور ما تمت ترجمته من اليونانية. والحقيقة عكس ذلك. لقد ازدهرت الحضارة الغربية انطلاقا من الاختلاط بالحضارة العربية، المتقدمة

أنداك، سواء بالأندلس أو بجزيرة صقلية جنوب إيطاليا أيام استقرار المسلمين بهما. حيث عمت عملية الترجمة والتدوين للعلوم الطبيعية والفلسفة. سواء ما ترجمه المسلمون للعربية أو ما طوروه بشكل منقطع النظير. كعلم التنجيم والرياضيات والجبر واللوغاريتمات المستعملة في حاضرنا كأساس للعلوم التكنولوجية لما بعد الحداثة. وكذلك فن الزراعة والطب والهندسة والحساب وغيرها من العلوم التطبيقية.

الى جانب هذه الميادين التي شكلت الانطلاقة العملية لتطور الفكر الفلسفي عند الغرب، التي كان أساسها، أي الفلسفة، ما تمت ترجمته من اللغة العربية، لغة التدوين للحضارة الإسلامية في العصر الوسيط. وبعد التفحص فيما شهد به علماء وفلاسفة الاغريق أنفسهم. ومنهم، لا الحصر، المؤرخ الكبير هيرودوت الذي زار مصر وكتب عنها الكثير كما أشرنا، وهذا سواء ما خص الفنون المعمارية والنحتية، أو التنجيم والحكمة والعقيدة التي تأثر بها الاغريق كثيرا. كما أكد ذلك قبله أفلاطون وفصل في هذا تيودور الصقلي في موسوعته. حيث قارن هذا الأخير بين آلهة الإغريق وألهه المصريين القدامى وان هناك وجوه التطابق. وأيضا ما يخص العديد من الأساطير والمعتقدات والحكمة التي أخدها الاغريق عن المصريّين. كما أشرنا اليه في حلقاتنا السابقة فاذا كان الاغريق قذ تأثروا بالفنيقين والكنعانيّين عامة منذ بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، فان علاقتهم بدأت مع المصريّين منذ الألفية الثانية قبل الميلاد عبر جزيرة كرية. ثم لا ننسى الدور الذي لعبته الإسكندرية كعاصمة للإمبراطورية التي بناها الاسكندر المقدوني والتي تحوت منذ القرن الرابع قبل الميلاد الى الفتح

الإسلامي مركزا أساسيا للثقافة الكونية أنداك وخاصة العلوم الدينية والفلسفية.

ككلمة أخيرة في هذا الحلقة، أمكن القول أن مصر، نضرا لموقعها الجغرافي بين الشرق و الغرب، فعلت في مجمل الحضارات القديمة وتفاعلت معها. والميزة الخاصة بالثقافة المصرية، قديما وعبر العصور، قدرة استيعابها للثقافات الوافدة اليها لتطبعها بطابعها وتعطيها حلة جديدة من صلبها. هذه الميزة موجودة، بهذا الشكل أو ذاك في الثقافة المغربية. فبقدر الدور الذي لعبته مصر في الشرق العربي والإسلامي، بقدر ما فعله المغرب في الغرب العربي والإسلامي بالأندلس وافريقيا. ولم يبق للأجيال الناشئة سوى رفع التحدي الذي رفعه أسلافهم، كمنارة للعقل وتجاوز المعتقدات الجامدة التي سببت احباطهم وانسداد أفق وعيهم.

مع أطيب التحيات والى حلقة لاحقة

محمد المباركي

3 مارس 2022